فلنعد إلى أقدس الأعراض والدماء.. عرض محمد ﷺ ودمه، الذي كان وهب بن عمير قبل قليل يريد نثره على طرقات المدينة، لكنه عاد إلى مكّة بغير القلب الذي جاء به.. عاد إلى مكة يحمل الحب والإيمان وعمامة النبي ﷺ.

عاد وهب مسلماً، لكن فعله قبل أن يسلم أثار لدى النبي ﷺ وأصحابه حالة اليقظة والحذر، فقد يكون هناك أكثر من مشروع لتصفية النبي ﷺ جسدياً. وقد صدق التوقع، وأفاد الحذر، حيث تسرّبت الأخبار إلى النبي ﷺ عن خطر قادم من جهة مكة، لكنه ليس من قريش،

خطر قادم من قبيلة بني المصطلق

وبنو المصطلق قبيلة عربية تسكن قرب مكة، في المنطقة الواقعة ما بين مكة والمدينة، وقد أراد ﷺ استغلال واستثمار الوقت بمفاجأة تلك القبيلة قبل أن تتحرّك ويتكامل استعدادها.. أراد ﷺ أن يباغتها بضربة سريعة تشلّها، لأن أي تأخير قد يضاعف من خطرها، وذلك لقربها من عدو النبي ﷺ الأول «قبيلة قريش».

أي تأخير يعني مزيداً من الأعوان والعتاد والخطر، فمباغتة ذلك الجيش الوثني وهو مسترخٍ على أرضه.. هو أسرع الطرق وأيسرها للقضاء عليه وإراحة المدينة من خطره. فاستعد ﷺ بجيش قوي لـ:

غزو بني المصطلق

وقد انضمّ إلى هذا الجيش مجموعة من المنافقين.. على رأسهم كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول -ربما- لشعوره بقوة جيش النبي ﷺ، وتأكده من هزيمة بني المصطلق.

وقبل أن ينطلق النبي ﷺ بجيشه ذلك أقرع بين سودة وعائشة وأم سلمة، وزينب، لتصحبه إحداهن في رحلته تلك، فالنبي ﷺ (كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه)[1].

---

(١) حديث صحيح رواه الشيخان رحمهما الله وسيأتي بقيته.

القرعة تقع على عائشة

وبعد إجراء القرعة خرج سهم عائشة الحبيبة، لتصحب حبيبها ﷺ في سفره ذلك.

تقول عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهنّ، فخرج بي رسول الله ﷺ معه، وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق[1]، لم يهيجهن اللحم فيثقلن[2]، وكنت إذ رحل بعيري[3] جلست في هودجي[4]، ثم يأتي القوم الذين يرحلون بي بعيري، ويحملوني، فيأخذون بأسفل الهودج، يرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فينطلقون به)[5] (وذلك بعدما أنزل الحجاب، وأنا أُحمل في هودجي، وأنزل فيه، فسرنا)[6] وانطلق الجيش، وانطلقت الهوادج تتمايل عبر الصحاري والقفار، وخلال الأودية والشعاب.. تتمايل بعائشة ورفيقاتها رضي الله عنهن، كما تتمايل القلوب بصوت حادي العيس أنجشة.. ذلك الصوت العذب، الذي يأخذ الأسماع، وربما أخذ الإبل أيضاً.

سمع ﷺ ذلك الصوت الشجي في بعض أسفاره، فخاف على أجساد النساء وقلوبهن.

يقول أنس رضي الله عنه: (كان لرسول الله ﷺ حادٍ حسن الصوت «غلام أسود يقال له (أنجشة) يحدو، فقال له رسول الله ﷺ: يا أنجشة، رويدك سوقاً بالقوارير» رويداً يا أنجشة لا تكسر القوارير)[7]

كان ﷺ من الرقّة والذوق.. بحيث لا يلهيه هدفه العسكري والخطر الذي يكمن له عن تفقد رفاقه والعناية بهم، لدرجة أنه (كان يتخلّف في المسير، فيزجي الضعيف،

---

(١) الطعام اليسير.
(٢) التهييج هو الورم من الشحم.
(٣) أي جهز للرحيل.
(٤) الهودج هو ما تجلس داخله النساء مثبتاً فوق ظهر البعير.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وابن إسحاق وهذا لفظ ابن إسحاق.
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠) وأحمد (١٩٤/٦) واللفظ له.
(٧) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم (٢٣٢٣) واللفظ له.

ويردف، ويدعو لهم)[1]. ويدعو أنجشة أن يخفّف من سيره حتى لا تتعب أجساد النساء الرقيقة، وكان وصف النبي ﷺ للنساء بـ (القوارير) منتهى الذوق والدلال، فالقوارير ناعمة وجميلة، وتحتاج إلى عناية فائقة، وأماكن تليق بها وبرقّتها وجمالها، والمرأة هي الرقّة والجمال والفتنة.. تحتاج إلى مستوى رفيع من التعامل والملاطفة بالقول والفعل، وهو ما فعله ﷺ عندما قال ﷺ لأنجشة: (ويحك يا أنجشة، رويداً بالقوارير)[2].

ها هو ﷺ يحاول طرد الملل والسأم عن نفس حبيبته عائشة في ذلك السفر، حيث أمر ﷺ فرسانه الشجعان بالتقدّم، ثم نادى حبيبته وطلب منها أن تتأخر معه، فالسفر طويل وشاق، ولا بأس ببعض اللهو يدخل البهجة ويجدّد النشاط. فماذا طلب منك الحبيب يا ابنة الصديق؟

تقول رضي الله عنها: (إنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر -وهي جارية- فقال لأصحابه: تقدموا. فتقدّموا، ثم قال: تعالي أسابقك.

فسابقته، فسبقته على رجلي)[3].

لابدّ أن هذا الفوز أسعد عائشة وأضحكها، أما النبي ﷺ فقد تقبّل الخسارة بروح طيبة، لكنه يضمر لعائشة ثأراً وسباقاً آخر قد ينتصر عليها فيه.

وصل الجيش إلى أراضي بني المصطلق.. فكانت:

إغارة كالبرق

فوجئ بها القوم وصعقوا، وحدث قتال غير متكافئ لهول المفاجأة، لأن (النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تسقي الماء، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم)[4]

---

(١) سنده رواه أحمد ٢-١٢٦ حدثني إسماعيل ابن علية حدثنا الحجاج بن أبي عثمان عن أبي الزبير أن جابر حدثهم. أبو الزبير وتلميذه وإسماعيل ثقات، وأبو الزبير لم يدلس.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٢٣٢٣).

(٣) حديث صحيح رواه النسائي في الكبرى (٣٠٤/٥) عن هشام عن رجل عن أبي سلمة عن عائشة وهذا السند فيه جهالة، لكن هشام رواه عن أبيه عن عائشة عند أحمد (٢٦٤/٦) وعند النسائي أيضاً في الكبرى (٣٠٤/٥).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٤١).

فكسرت شوكة بني المصطلق، وبدأت جذوة قريش والشرك تخبو في نفوسهم بعد أن رأوا (مائة أهل بيت)[1] وأكثر يساقون سبايا نحو المدينة، وكان من هؤلاء السبايا شابة هي ابنة زعيم بني المصطلق واسمها (جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه)[2] (وكانت امرأة حلوة، ملاحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه)[3].

سارت جويرية والألم يعتصر قلبها، وهي تساق جارية بعد أن كانت سيدة نساء قومها. أحسّت بفداحة الجرم الذي ارتكبه زعماء قبيلتها في حقّها، بل وحق مائة بيت اقتيدوا نحو المدينة، ورغم حسن المعاملة ولطف العناية التي حظي بها هؤلاء من النبي ﷺ وأصحابه، إلاّ أن للوطن والأهل حباً زرعه الله في قلب الإنسان، وقد أثار هذا الذلّ الذي أصاب جويرية وقومها ذلك الشوق والحنين إلى تلك المرابع.. رغم أن النبي ﷺ وأصحابه أكثر البشر تحضراً في التعامل مع الأسرى، وأرقى من يكرمون الأسير، فهم (يطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً)

ورغم أن النبي ﷺ وأصحابه يؤثرون الأسرى بالطعام الجيد على أنفسهم، إلاّ أن قطرات الذلّ تفسد أشهى الأطباق، وهو ذلّ جلبه صلف الشرك لبني المصطلق، فلولا استعدادهم وإعدادهم للهجوم على المدينة وأهلها، لما أصابهم ما أصابهم..

كانوا يحلمون بسبايا المدينة يقتادونها نحو مرابعهم.. يحلمون بدم النبي ﷺ وأصحابه وإخماد دعوته، لكن الله ردّ كيدهم في نحورهم، وها هي بيوتهم وأحلامهم قد خلت منهم، وها هو جيش محمد ﷺ يعود إلى المدينة بهم، وفي الطريق يتوقف النبي ﷺ ويتوقف جيشه للاستراحة قرب المدينة، فتنبث الجموع هنا وهناك، ومع حلول الليل تتلاشى تلك الحركة، وبعد أداء صلاة العشاء يأوي كل إلى فراشه، ويقوم من يقوم منهم في سياحة روحية، وكان أحد أفراد الجيش واسمه (صفوان بن معطل) متأخراً عن الجيش -ربما بأمر النبي ﷺ- ليكون عيناً خلفية للجيش ونذيراً لهم إذا ما لحق بهم أحد أو هاجمهم من الخلف، وبعد منتصف الليل أمر ﷺ جيشه بالحركة نحو المدينة..

---

(١) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

(٢) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

(٣) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

النبي ﷺ يسبق عائشة

لكن دون سباق.. دون ركض.. دون ابتسامات وضحكات.. سبق النبي ﷺ عائشة في قصة تفيض بالأحزان والدموع والبراءة.

تحرك الجيش ولم تتحرك عائشة، وأشرقت الشمس والأحزان على ذلك الموقع، فلم تجد فيه سوى فتاة صغيرة منكسرة أضاعت عقدها وهودجها، ورحل عنها حبيبها ووالدها وصويحباتها.

أشرقت الشمس والأحزان على عائشة، ووصل صفوان بن معطل ليجد ذلك الحزن في طريقه، ليبحر به خلال بحر أسود من الأحزان والهموم.. بحرٌ تقول عنه عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.. فأقرع بيننا في غزوة غزاها «غزوة بني المصطلق»، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، مسيرنا «وكنت إذا رحل بعيري، جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون هودجي في بعيري، ويحملوني، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه، فيضعونه على ظهر البعير، فيشدّونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به»، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقفل، ودنونا من المدينة، «نزل منزلاً، فبات فيه بعض الليل، ثم» آذن[1] ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقدي من جزع ظفار[2] قد انقطع «انسلّ من عنقي ولا أدري» فرجعت، «عودي على بدئي إلى المكان الذي ذهبت إليه» فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط[3] القوم الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكانت النساء إذا ذاك خفافاً، لم يهبلهن[4] ولم يغشهن اللحم «لم يهيجهن[5] اللحم فيثقلن»، إنما يأكلن العلقة[6] من

---

(١) أعلنوا الاستعداد للرحيل.

(٢) خرز من مدينة ظفار.

(٣) هم الرجال أقل من عشرة.

(٤) يمتلئن بالشحم واللحم.

(٥) التهييج هو الورم من الشحم أو المرض.

(٦) الطعام اليسير.

الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن[1] الجمل وساروا، «ولم يشكوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به»، ووجدت عقدي بعدما استمرّ الجيش، «ورجعت إلى العسكر»، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فتيمّمت[2] منزلي الذي كنت فيه «فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني الذي ذهبت إليه» وظننت أن القوم سيفقدوني، فيرجعون إليّ.

فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، «فوالله إني لمضطجعة، إذ مرَّ بي صفوان بن المعطل السلمي» وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرّس من وراء الجيش «قد كان تخلّف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس في العسكر» فأدلج[3]، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني، فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليّ، «فلما رآني، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! أظعينة رسول الله! وأنا متلفّفة في ثيابي».

فاستيقظت باسترجاعه[4] حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه[5]، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها «واستأخر عني، فركبت وجاء فأخذ برأس البعير»، فانطلق يقود بي الراحلة «سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودني» حتى أتينا الجيش. بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة[6] «فقال أهل الإفك فيَّ ما قالوا، فارتجّ العسكر»

فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولّى كبره[7] عبد الله بن أبي بن سلول، «ووالله ما أعلم بشيء من ذلك» فقدمنا المدينة..)[8].

---

(١) وكان عمرها رضي الله عنها آنذاك بين الثالثة عشر والرابعة عشر.
(٢) قصدته وذهبت إليه.
(٣) سار آخر الليل.
(٤) قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٥) قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٦) شدة حر الظهيرة.
(٧) أي صاحب النصيب الأكبر في إشاعة الإفك ونشره.
(٨) حديث صحيح رواه مسلم والزوائد لابن إسحاق.

مهلاً يا أمّاه

ما هو الإفك، ومن هم أهله..؟ وما هي الفرصة التي غرز فيها هذا المنافق الحقير أنيابه ونفث فيها سمومه..؟

عندما رأى المنافقون عائشة الصغيرة.. عائشة الطاهرة المسكينة على راحلة صفوان بن المعطل رضي الله عنه.. رقصت الفتنة في قلوبهم، وتراقص الشيطان بينهم، وطالت أنيابهم تنهش أطهر الأعراض.. عرض النبي ﷺ.

انطلقت ألسنتهم في جرأة وقحة.. في حقد متربّص تتهم عائشة النقية بالخنا، وتتّهم صفوان البرىء بعائشة رضي الله عنها.

عاصفة من الحقد والتشفّي أطلقها المنافقون، وعاصفة رملية أخرى للنفاق علاقة معها.. عاصفة كادت تدفن الجيش وهو يقترب من المدينة.

عاصفتان ونفاق

العاصفة الأخرى يحدّثنا عنها جابر رضي الله عنه، فيقول: (إن رسول الله ﷺ قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب، فزعم أن رسول الله ﷺ قال: بعثت هذه الريح لموت منافق.

فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات)[1].

فرح النبي ﷺ وأصحابه بهلاك ذلك الطاغوت.. ذلك الكهف الذي تتسلّل إليه الأفاعي والعقارب الآدمية التي تعيش بين المؤمنين، وتتكلّم بألسنتهم، وتتظاهر أنها منهم، وفرح ﷺ بقدوم عائشة، وفرحت عائشة بحبيبها وهي لا تعلم، وهو أيضاً لا يعلم ما تتلقّفه ألسنة المنافقين من جريمة، وبعد الوصول قام ﷺ بـ:

توزيع الغنائم.. توزيع الرحمة

عائشة المسكينة البريئة.. التي تلوك عرضها ألسنة المنافقين وهي لا تعلم شيئاً عن ذلك حتى الآن.. عائشة التي أتعبها السفر، فانهار جسمها الضعيف على فراش

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم -صفات المنافقين (٢٧٨٢).

المرض.. تحدّثنا عن معاناة لها مع توزيع الغنائم والسبايا، فتقول: (لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عمة له، فكاتبته على نفسها[1]، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها.

قالت عائشة: فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت، فدخلت عليه)[2].

دخلت جويرية فدخلت الرحمة على قومها

تقول عائشة رضي الله عنها في حديثها عن جويرية: (فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عمٍ له، فكاتبته على نفسي[3]، فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال ﷺ: فهل لك في خير من ذلك؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال ﷺ: أقضي عنك كتابتك وأتزوّجك.

قالت: نعم.. يا رسول الله، قد فعلت.

قالت عائشة: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوّج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار. فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم[4].

قالت عائشة: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها)[5]

---

(١) أي يحررها مقابل مال تدفعه له.

(٢) سنده صحيح انظر: تخريجه في نهاية القصة.

(٣) أي يحررها مقابل مال تدفعه له.

(٤) حرروهم وأطلقوهم.

(٥) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وغيره من طريقه: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة، محمد ثقة من رجال التقريب (٤٧١) وعروة مر معنا كثيراً.

وما أعلم أحداً أعظم بركة عليها وعلى قومها وعلى الناس جميعاً من محمد ﷺ.. لقد وجدت في رحمته وسماحته مكاناً لمطالبها الصعبة، فهي أسيرة عنده، ومع ذلك تطلب منه أن يعينها للفكاك بماله، فيأخذ بيديها، ويشرع لها باباً يطل على كنوز الدنيا والآخرة، وهل هناك كنز في الدنيا أعظم من أن تكون شريكة حياته ﷺ.

لم تقتصر بركته ﷺ على تلك الكريمة الجميلة.. لقد كانت بركة كالشمس ينساب شعاعها على أكثر من مائة بيت من بني المصطلق، فانطلقوا معززين مكرمين في دفئها وشعاعها يحملون الحرية والعرفان للنبي ﷺ وأصحابه الكرام.

وفي وسط تلك الأجواء الاحتفالية.. كانت عائشة تحسّ بآلام السفر والإعياء الشديدين.. سقطت بعد أيام قليلة في فراشها، وطال رقادها على فراشها وأنينها، لكن ألمها ازداد عندما أحست بجفوة غريبة من النبي ﷺ.. أحسّت بتغيّر معاملته لها، وهي التي تعوّدت منه الرقّة واللطف.. خاصة عندما تكون مريضة، حيث يتدفق حبه عليها ﷺ.. يغمرها بكلماته ولمساته الحانية المحبة.

تقول رضي الله عنها: (فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى، «أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك في شكواي تلك، فأنكرت منه» إنما يدخل رسول الله ﷺ «عليَّ وأمي تمرّضني» فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ «لا يزيد في ذلك» ولا أشعر بالشر)[1].

شهر من المعاناة

وعائشة لا تدري عما يدور حولها.. لقد تطاول المنافقون على حصنها المنيع.. حاولوا تشويهه.. قذفوا عائشة وأرجفوا في البلاد، فارتّجت المدينة، ووصل الخبر إلى النبي ﷺ، فتكدّر لإلقاء التهم جزافاً على مسلمة طاهرة.. هي زوجته وأحب الناس إليه، وتأثر بتلك الشائعة أناس مؤمنون، وضعفوا أمام لغط المنافقين، وهم بشر كبقية البشر، ولكل إنسان هفوات وأخطاء..

---

(١) رواه مسلم (٢٧٧٠) واللفظ له والبخاري (٤١٤١) والزوائد لابن إسحاق وقد مر معنا.

تلقف ثلاثة من المؤمنين الإفك، فاتهموا عائشة الطاهرة، وهم: رجلان وامرأة.. ثلاثة أشخاص لا تحوم حولهم شبه النفاق، لكنهم يظلّون بشراً ناقصين.. معرّضين للإثم والخطأ في كل لحظة وثانية، أما الرجل الأشهر منهم فهو شاعر النبي ﷺ، الذي يؤيّده روح القدس في أشعاره التي دافع بها عن النبي ﷺ (حسان بن ثابت) والآخر رجل من أهل بدر وقد (اطّلع الله على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)[1] واسمه (مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب) وقد كان أبو بكر الصديق ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، ومع ذلك حدث منه ما حدث.

أما المرأة فهي أخت أم المؤمنين (زينب بنت جحش) واسمها (حمنة) ولا أدري ما هو دافع الرجلين، أما حمنة فكان دافعها الحمية لأختها زينب، التي كانت تنافس عائشة في المنزلة عند رسول الله ﷺ.

أما رأس الحية وسمّها، ومنبع قيح الإفك فهو زعيم المنافقين (عبد الله بن أبي بن سلول) الذي ذهب يزرع المدينة.. شوارعها ومجالسها.. بلسانه المتعفّن. حوله الحقد إلى رجل تافه بلا قيم.. بلا أخلاق.. رجل لا يحترم مكانته بين قومه.. رجل أفقده الحسد عقله ورزانته، فأصبح كالأبله لا همّ له، ولا شأن سوى عائشة الصغيرة.. يتشفّى بذكرها واتّهامها، بعد أن فقد الأمل في الحصول على زعامة، أو حتى مكانة محترمة في المدينة.. بعد أن أحرقته عيون أهلها باحتقار سلوكياته، والتقزّز منه ومن مجالسه وجلسائه، الذين هم خليط من عفن الشرك واليهود والخونة.

هذا هو ابن سلول وهذه هي عقيلته الصغيرة، فهو الذي تولّى كبر الإثم ومعظمه، لكن:

متى علمت عائشة بالإفك

تقول رضي الله عنها: (كان الذي تولّى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً، «اشتكيت شكوى شديدة، لا يبلغني شيء من ذلك، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوي، ولا يذكران لي من ذلك قليلاً ولا كثيراً» والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

يريبنـــي في وجعي أني لا أعرف من رســـول الله ﷺ اللطـــف الذي كنت أرى منه حين أشـــتكي، إنما يدخل رســـول الله ﷺ فيســـلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ فذاك يريبني، ولا أشـــعر بالشـــر «كنت إذا اشـــتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك في شكواي تلك، فأنكـــرت منه، وكان إذا دخل عليّ وأمـــي تمرضني قال: كيف تيكم؟ لا يزيد على ذلك، حتى وجدت نفســـي مما رأيت من جفائه عني، فقلت له: يا رســـول الله، لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟ قال: لا عليك.

فانتقلت إلى أمي ولا أعلم بشيء مما كان»، حتى خرجت بعدما نقهت[1]، وخرجت معي أم مســـطح قبل المناصع[2] وهو متبرزنا، ولا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف[3] قريباً من بيوتنا، وأمرنا العرب الأول في التنزّه[4]، وكنّا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مســـطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مســـطح ابن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها[5]، فقالت: تعس مسطح.

فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبّين رجلاً قد شهد بدراً [أي أم، تسبين ابنك؟

وسكتت، ثم عثرت الثانية، فقالت: تعس مسطح.

فقلت لها: تسبين ابنك؟ ثم عثرت الثالثة، فقالت: تعس مسطح.

فانتهرتها. فقالت: والله ما أسبّه إلاّ فيك.

فقلت: في أي شأني؟]

قالـــت: أي هنتاه! أوَلم تســـمعي ما قال؟ قلت: وماذا قـــال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك [فبقرت لي الحديث[6].

فقلت: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله].

---

(١) فترة النقاهة هي الأيام الأولى للشفاء من المرض حيث عادت إلى بيتها.
(٢) مكان خارج المدينة.
(٣) المكان الساتر.
(٤) الخروج للنزهة في الصحراء.
(٥) ثوبها وهو كساء من الصوف.
(٦) أي فصلت الحديث وسردته.

فـــازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، «فمازلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع قلبي»، فدخل عليّ رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم؟

قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي، وأنا أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما. فأذن لي رسول الله ﷺ.

فجئت أبوي [فأرســل معي الغلام، فدخلت الدار فوجدت أم رومان[1] في الأسفل وأبــا بكر فــوق البيت يقرأ. فقالت أمــي: ما جاء بك يا بنيــة؟ فأخبرتها، وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني]

فقلــت لأمي: يا أمتاه، ما يتحدث الناس؟ فقالت: يــا بنية هونّي عليك [خفضني عليك الشــأن]، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة [حســناء] عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلاّ كثرن[2] عليها، [إلاّ حسدنها وقيل فيها، وإذا لم يبلغ منها ما بلغ مني.

قلت: وقد علم به أبي؟

قالت: نعم.

قلت: ورسول الله ﷺ؟

قالت: نعم، ورسول الله ﷺ.

قلت: سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا؟ «تحدث الناس بما تحدّثوا به، وبلغك ما بلغك، ولا تذكرين لي من ذلك شــيئاً» [واســتعبرت وبكيت، فســمع أبو بكر صوتي -وهو فوق البيت يقرأ- فنزل، فقال لأمي: ما شأنها؟

قالت: بلغها الذي ذكر من شــأنها، ففاضت عيناه، قال: أقسمت عليك أي بنية إلاّ رجعت إلى بيتك، فرجعت].

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع[3]، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي)[4].

---

(١) هي أم عائشة رضي الله عنها.

(٢) أي أكثرن من ذكرها بما يعيبها.

(٣) أي أن دمعها لم يتوقف تلك الليلة ولم يغش النوم عينها.

(٤) مسلم ٢٧٧٠ ومابين الأقواس الصغييرة لابن إسحاق وما بين المعقوفين للبخاري ٤١٤١.

أفاقت عائشة من مرض السفر على مرض أشدّ.. أفاقت رضي الله عنها والعالم ينهار على رأسها.. بكت بكاءً مراً حتى أحرق البكاء كبدها، أما والداها فكالحزن حولها.. ليس بأيديهما ما يخفف وجع هذه الشابة المكلومة المبتلاة ولا ما يسليها.

أما النبي الحزين الحائر ﷺ فالوحي لم ينزل عليه حتى الآن، والإشاعات تحاصره وتخنق أنفاس حبيبته، فاجتهد ﷺ اجتهاد البشر، واستدعى علياً وابنه أسامة بن زيد بن محمد، فقد ضاق به الحال، وتأذى كثيراً وهو يسمع المنافقين يلوكون عرضه الطاهر ليل نهار، فهل من نهاية لهذا الأمر..؟ إلى أين يأخذه الحزن..؟ إلى أين تأخذه قدماه الشريفتان..؟

توجّه النبي ﷺ إلى أحد أبياته.. إلى بيت زينب بنت جحش رضي الله عنها بالتحديد، ليسألها عن عائشة فهي التي تنافسها من بين زوجات النبي ﷺ، فلعلّها تقول شيئاً يزيل حيرته ﷺ.. لعله يعرف مصادر الفرية التي تلوكها أختها «حمنة».

النبي ﷺ يسأل زينب

وزينب كالمطر.. ستقول الحقيقة، ولن تأبه بحمية أختها لها وغيرتها من عائشة.

تقول عائشة: أن (رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش -زوج النبي ﷺ- عن أمري: ما علمت أو ما رأيت؟ فقالت: يارسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاّ خيراً.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني[1] من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع. وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك)[2] (وكان الذي يتكلم به فيه: «مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، والمنافق عبد الله بن أبي بن سلول» وهو الذي كان يستوشيه[3]، ويجمعه، وهو الذي تولّى كبره[4] منهم هو وحمنة)[5] التي لم تكن تعرف

---

(١) تنافسني.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم -التوبة.

(٣) ينشره ويحث غيره على نشره وإشاعته.

(٤) معظمه.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٤ - ١٧٨٠ والزيادة للطبراني ٢٣-١١٠.